فى الادب المصرى القديم

ملخص فصل من كتاب
(النيل والحضارة المصرية)
للأستاذ (آ. موريه)

— ٢ —

وهنا نجوى تبسط لنا شيئا من الحياة الزوجية ، يرددها زوج يبكى فقد امرأته ، وامرأته - كما يبدو - ما زالت روحها أتبع له من ظله . قال يناجيها :

« لماذا أشقيتنى حتى غلبت علىّ هذه التعاسة ؟ ما ذا صنعتُ حتى رفعتِ يدك علىّ دون أن أباديك بشىء ؟ سأرفع دعواى لآلهة المغرب التسعة ، حتى يفصلوا بيننا .

ما ذا صنعت ؟ كنت امرأتى حين كنتُ أخطر فى برد الشباب ما أزعجتك وما مسستك بسوء . اذ كرينى عند ما كنت عريفاً بين المحاربين فى جيش فرعون ، تركتهم لأجىء اليك . حاملا اليك منهم هدايا ثمينة ، وأنا لم أُخف عنك سراً طيلة حياتك ، ولم أدخل منزلا غير منزلك (بعد الطلاق) . وعند ما رهنونى فى الموطن الذى أنا فيه الآن وجعلوا رجوعى اليك مستحيلا ، أرسلت اليك زيتى وخبزى وأثوابى ؛ ولم أبعث بها الى أحد سواك . وعند ما مرضتِ جئتك بطبيب ، فوصف العلاج ، وأتى بكل ما قلت عنه ؛ وعند ما وجب على أن أرافق فرعون فى رحلته الى الجنوب لبثت أفكارى متوزعة عندك ، وقضيت ثمانية شهور حليف الأسى لا يلذ لى طعام ، ولا يسوغ لى شراب . وبعد وفاتك عدتُ الى ممفيس ، ورجوت من فرعون الذهاب الى بيتك ، وهناك وقفت باكياً . وأسعفنى أصحابى على البكاء ، وأعطيتهم ثياباً للف جثمانك .

واليوم وقد تعاقب ثلاثة أعوام وأنا قابع فى عزلتى ، مادخلت منزل أحد ، ولا عرجت على أخت من الأخوات اللابثات فى البيت » .

ثم نشأت قصص صغيرة مشبعة بالروح الشعبية التى تجلت فيها ، أضف الى ذلك مقطوعات غزلية عاطفية ، تمثل لنا الحياة الوجدانية والعقلية للمصريين القدماء . ومن هذه القطع مقاطيع بعنوان (أغانى لغبطة القلب) وهى أغانى يجب أن تكون مصحوبة بآلات الطرب ، على أن الموسيقى المصرية ظلت مجهولة برغم آلاتها الشائعة عندهم . وجل هذه المقطوعات محاورات بين رجل يدعو المرأة (يا أختى) ، وامرأة تدعو الرجل (ياأخى) وكلاهما يتجاذب الأغاريد بلهجة جذابة رقيقة . وتلوح على هذه المقطوعات بعض ملامح مصرية وأخلاق مصرية تثبت ماقصه علينا المؤرخ هيرودوت إذ قال : « ان المصريات كن أحراراً فى مسالكهن وتصرفاتهن فى تجارة الحياة وفى مزدحم الأعياد الدينية ، وهن اللواتى كن يخرجن من بيوتهن لتدبير البيت والانفاق عليه ، والرجال يقومون بالخدمة المنزلية خلال تغيبهن . وهذه القبور الطيبية (Thébains) تطلعنا على حياة المرح عندهن ، وكثير من الحكايات الشعبية تدلنا على اخلاقهن وما اتسمن به من صفات الجرأة ، وهذه الجرأة قد تبدو فى هذه المقطوعة الغزلية ، إذ نرى العاشق كالمتغانى ، والعاشقة هى التى تتكلم :

يقص علينا العاشق هبوطه الى ضفاف النيل بجوار ممفيس . وهناك شاهد (اخته) فى حديقة طيبة الأريج ، « اذا هولثم شفتيها كان نشوان بغير نبيذ » هو يدنو منها كالعصفور الذى ينقض بنفسه على الشرك (شرك الحب) ، ولكن حميا الحب أقوى من حميا الخمر .

يقول العاشق : « نزلت المنحدر ، وأنا أحمل على كتفى حزمة قصب . وبلغت ممفيس وقلت (لباتا) سيد العدالة : أعطنى أختى هذه الليلة ، فالنهر من خمر ، (وباتا) قصبه . وسبكميت سدرته ، (وأريت) يراعه ، و (ينقرنوم) أزهاره .

هذا هو الفجر وممفيس كأس من ثمر ، مصفوفة امام الاله باتا ذى الوجه الجميل .

سأنام فى بيتى ، وأغدو عليلا ، وسيهرع جيرانى الى عيادتى ، واذ ذاك تجىء أختى معهم ، وترينى للاطباء لأنها عارفة بدائى .

ارى (اختى) مقبلة ، وقلبى يستفزه الطرب وذراعاى تنبسطان لعناقها ، وقلبى يخفق فى موضعه عندما تجىء .

اذا عانقتها وفتحت لى ذراعيها ، فكأنى ألقيت بنفسى فى « بونت » مدينة الطيوب . واذا لثمت فاها وتفتحت لى شفتاها ، فانا سعيد سكران بدون نبيذ

اما العاشقة فهى سهلة المأخذ ، تنطلى عليها الاساليب المغرية ، حبها الدقيق أدنى الى الندب والشكوى ، فى حالة الانتظار ، تبدى كل مظاهر الدلال ، وتقيس ذراعاً كلما قاس العاشق أصبعاً ، وهذه (صائدة الطيور) لا تنصب الشباك لمجرد اللذائذ وانما تصبو من وراء الحب الى اتحاد الروحين بالزواج والى السهر على خيرات عاشقها كأنها صاحبة بيته .

تقول العاشقة :

« ياأخى المحبوب ! إن قلبى يسعى وراء حبك ، انظر ماذا اصنع !

قد نصبت فخى بيدى ، ان عصافير (بونت) هبطت على مصر ، مخالبها مفروكة بالصبر ، والعصفور الذى نزل — فى البدء — قد التقط طعمى .

هو ناقل عطره من (پونت) ، ومخالبه مفعمة بالصبر الطيب.

أرغب منك أن تعمل على افلاته من الفخ ، حتى تصغى أنت الى انين هذا العصفور المطيب بالصبر .

ما أجمل وجودك معى عند ما أنصب الفخ !

الوزة (العاشق) تشكت عند ما علقت .

وذاك حبك يستهوينى اليك دون أن أستطيع الافلات منه ، يجب على أن أهجر (حبائلى) . ولكن ماذا أقول لأمى عمن أغدو اليه كل يوم وأنا مثقلة بعصافيرى ! ! !

أنا سجينة حبك ! وقبلتك وحدها هى التى تحيى قلبى .

قد وجدت من أحبه ، فليت شعرى هل يقدر (آمون) على أن يعطينى اياه الى الأبد . . ؟

ياصديقى الجميل ! اود ان ارعى خيراتك كصاحبة بيتك ؛ وذراعى مسندة الى ذراعك .

سأقول فى نفسى عندما يعاودنى حبك : ان أخى الكبير بعيد عنى هذه الليلة .

ما اشبهنى بالاموات ، لانك أنت عاقبتى وكل حياتى » .

وهذه عاشقة أخرى تلوم شاة أيقظتها عند الصباح وهى لا تود ان تستيقظ :

« ناجتنى الشاة قائلة لى : هذا هو الفجر فاستيقظى ، الا تهمين بالخروج ؟

لا لا ! يا شاتى : انت تسيئين الى !

قد وجدت أخى يتمطى فى سريره ، فطرب قلبى له وقال لى : لن أتركك أبداً ، وهذه يدى فى يدك ، سنطوف معا كل مكان يحسن فيه التنزه .

اتخذ منى خليلته الأولى . وهو لن يحمل أى هم الى قلبى . »

وبعدهذا الحب كله يضعف الهوى وتهب الشكوك ثم تتصاعد انات العاشقة لخيانة صاحبها إياها واستبداله غيرها بها ، فأصبح حب المرأة ادنى الى العاطفة وأغنى «هوى» من الحب الذى أعلنه الرجل بلسانه .

والشاعر يزين نفثاته بالاساليب الغزلية الرقيقة، فالعاشقة تطوف فى حديقة غنية الازهار والاعشاب، فما من نبتة أو ثمرة الا تذكر بشىء من محاسن المحبوبة او ترمز الى سعادتها المتلاشية. الاشجار تتكلم: فهى التى تؤوى الى افيائها العاشقين ، وتخفى عن العيون فصول غرامهم ، فهنا شجرة رمان تشكو وتتوعد من أهملها ، وهناك سدرة غرستها كف عاشقة تعلن رضاءها عن القدر ، وهنالك جميزة صغيرة سعيدة بمواقف العاشقين تحتها . وهى تراقب الازواج بعين خبيثة ولكنها تكتم اسرارهم .

وثمت شىء من الشعر الذى يصف الوان الجمال النسائى . وهذه هى اهم صفات هذا الجمال المنشود « شعر حالك كالليل ، واسنان اسطع من لمعان الصوان ، وقامة رشيقة ، وصدر صلب طافح »

واذا قارنت هذا الجمال بما جاء فى تماثيلهم وصورهم عرفت أن المصريين قد أهملوا رقة الصور والاشكال فى الجمال ، فكانوا على نقيض الشرقيين المعاصرين الذين يحبون (الخط الاهيف فى الجمال الفتى) الذى يعدهم - فى العالم الثانى - بامرأة لها شباب خالد .

وفى هذا الأثر الادبى الذى ابقى عليه الزمن ، نرى عمل المخيلة الصافية فيه مهملا ، وتعاليم الفن والعلم والأدب التى وضعت لخدمة الدين والدولة جاءت غنية الخطوط ، طابعة الحضارة المصرية بطابعها .

أما مصر القديمة فلم تكن الا — فى القليل النادر — بلد البراعة المنزهة عن الغرض ، والتى جاءتها من أجل الفن . فعلمها للعلم المجرد ، وتفكيرها للتفكير المطلق ، وأدبها للادب النفسى ، واعمالها العظيمة المجهولة الاسم قد وضعها أربابها بدقة ومهارة فى سبيل خدمة مذهب فنى يسمو الى غايات اجتماعية ودينية . وهكذا ضيق الجمال المصرى باكرا ساحة الابداع على المبدعين القادرين ، ولكنه لم يهن ولم يقصر فى تحليل كل ما يقدسه الشعب ويجله من تعاليم السلطة والصلاح والادب . فكان أعظم ميزاته وأسمى سماته تمثيله - بالرموز - معنى النسل . وسهولة فهم مثله الاعلى الشريف ، وكل ذلك بأسلوب يستحيل التقليد فيه ، وعلاء يصعب السمو اليه .

خليل هنداوى

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الالمانى

نقله عن الفرنسية

أحمد حسن الزيات

وهى قصة واقعية من روائع الأدب الألمانى تصور طهارة الحب وكرم الايثار وشرف التضحية بأسلوب رائع قوى وتحليل بارع دقيق .

يطلب من المكاتب الشهيرة ومن لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الساحة رقم ٣٩ والثمن ١٥ قرشا